1 تمهيـــــــــــد:

كما تم التطرق له في المحور السابق فالإشكالات الناجمة عن تنفيذ النظريات التي تتخذ من التيار الحداثي توجها لها، فالمشارب الأولى للتخطيط العمراني ظلت و لفترة طويلة الفن المعماري إذ أن مخرجاته أضحت تحاكي منتجات العمارة و لكن على مستوى أو سلم أوسع و هذا ما أكده *Alberti* "المدينة لا تختلف عن المسكن إلا في مسألة السُلَم، فالمسكن يعتبر نموذجا مصغرا للمدينة*(micro ville)* هذه الأخيرة ما هي في الحقيقة إلا مسكن كبيرا *(macro maison)* إنه الاتجاه العقلاني في التخطيط، عجل هذا الوضع بظهور اتجاه جديد ينأى بموضوعه عن التعامل مع إنتاج الأشكال الفيزيقية ليتعداه فيضحي عملية صياغة السياسات و اتخاذ القرارات التخطيطية على إثره نشأ جدل حول التخطيط فيما يخص طبيعته المعيارية مثالية أو ذات طبيعة وصفية واقعية.

2 فكر الحداثة و أزمة التخطيط:

هيمن الفكر الحداثي في ميدان التخطيط خلال الفترة الممتدة من الخمسينيات إلى السبعينيات القرن الماضي، يعتمد و يبنى على أن المعرفة العلمية المكتسبة من خلال البحث و التحليل العلمي كفيلة بحل مشاكل المدن و إنسان هذه الأخيرة، على ضوء هذا أصبح المخطط الخبير قادر على إيجاد الحلول لكل المشاكل العمرانية في أي مكان و لأي إنسان إذا ما هو تسلح بالمنهج العلمي العقلاني، أحد جهابذة التخطيط لهذه الحقبة *Friedmann* عرف التخطيط على أنه هو تلك العلاقة التي تربط المعرفة بالفعل، مستوحى من زعيم الفكر التنويري الحداثي *Francis Bacon (1561-1626)*: المعرفة قوة و سلطة، أي تلك المعرفة التي ينتجها الخبراء باستعمال ملَكة العقل و المنطق في البحث و التحليل، فلن تقف أي مشكلة عمرانية مهما كانت مستعصية عائقا أمام خبراء التخطيط في حالة اعتمادهم الأداة و الأسلوب نفسه (المعرفة العلمية)

مخرجات هذا الفكر يلخصه الناقد الحديث تشارلز جينكز 1990 كان أشدهم حكما على فشل تجربة المائة عام من التخطيط إذ لم يتورع في مؤلفه الشهير" لغة فن العمارة لما بعد الحداثة The *Language of Post-Modern Architecture* " أن ي صدر شهادة الوفاة للتخطيط الحديث موضحا بدقة تاريخ ومكان الوفاة فشل مشروع بروث إيغور *Brruitt- Igoe* بسان لويس ميسوري 11 جويلية 1972 تاريخ هدم هذا المشروع الحائز على الجائزة الأولى لتميزه في تطبيق مبادئ المؤتمر العالمي للحداثة في العمارة و العمران *C.I.A.M*

1.2 أفكار و تصورات جديدة متناقضة:

توالت الدراسات و الكتابات و البحوث التي تعنى بكوارث التخطيط الحديث نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر: ***(Ebenzer HOWARD 1902)*** مدن الغد، المدن الحدائقية *Garden cites of tomorrow* ***(LE CORBUSIER 1923)*** نحو عمارة جديدة *Towards a new architecture* و *PETER Hall* 1990 الكوارث الكبرى للتخطيط *Great planning disasters* و تشارلز جينكز 1990، لغة فن العمارة لما بعد الحداثة، حيث ذكر المثال السابق الخاص بفشل مشروع بروث إيغور و قد ضن الكثير أن البشرية قد تخلصت من كوارث التخطيط لكن ما فتئت تشهد انتكاسات أخرى متتالية و هذا ما ذكره *Bent Flyvbjerg*

في مؤلفه عن تجربة آلبورغ بالدانمارك يعرض فيه تحليلا لمخطط مركز المدينة وعنوانه" العقلانية والسلطة :الديمقراطية في الممارسة *1998 Democracy in Practice and Power: Rationality* بل فقد ذهب نقاد أخرون بوصف الجوانب المظلمة في التخطيط أما الجوانب المشرقة والمضيئة فتكاد تلغى من قواميسهم وأحاديثهم.

2.2 الطبيعة المزدوجة للتخطيط:

الوضع سالف الذكر ناتج عن الطبيعة المزدوجة للتخطيط، نظرية و تطبيقية في أن واحد فهو يهتم بجانب التنظير و التجريد كباقي العلوم الاجتماعية، و كذا كونه أحد العلوم التطبيقية لابد أن يخضع استنتاجاته النظرية على محك الواقع و يقوم بتطبيق توصياته، هذا الوضع زاد من درجة تعقيد التخطيط وتجعل عملية التنظير له عملية في غاية الصعوبة لكونها على عكس باقي العلوم النظرية عليها أن تجمع ما بين جانب التجريد النظري و الممارسة.

- التخطيط غاية: تناول عملية التنظير تهدف بالبحث في كيفية الرقي بالتخطيط كأداة و كممارسة بغية تحسين أدائه و رفع كفاءته.
- التخطيط وسيلة: يركز على دور الذي يلعبه التخطيط في عملية الانتاج الاجتماعي للفراغ و للبيئة العمرانية

ثم على كون التخطيط غاية و وسيلة في آن واحد كذلك التخطيط طبيعة معيارية و وصفية في الوقت نفسه.

التخطيط المعياري: صياغة الوضع المستقبلي الذي ينبغ أن يكون عليه عن طريق وظيفة معيارية في محاولة لتوجيه الفعل نحو قيم يتبناها و يسعى لتحقيقها.

التخطيط الوصفي: وصف الوضع القائم لاستيعاب ما هو كائن على أرض الواقع.

تم ترجيح كفة الخاصية المعيارية التي لازمت تطور التخطيط و حددت مساره كمهنة تسعى و تصبو للعدالة الاجتماعية من وجهة نظر التوجه الذي يتبناه، لكن حقيقة الأمر أنه في حالة كون التخطيط وصفيا فإنه يفتقر للفعالية إذ لا يمكنه التغيير من الوضع الإشكالي للواقع المعاش للظاهرة التي يتناولها، بينما حين يكون معياريا فسيصبح حالما منفصلا بعيدا عن الواقع أغلب مخططاته لا يمكن تنفيذها على أرض الواقع

- في حقيقة الأمر ظل التجاذب بين خاصيتي التخطيط المعياري والوصفي يميز تاريخ التخطيط، فالتخطيط كممارسة بشرية عرف منذ عصور ما قبل التاريخ، بيد أن التخطيط كعلم قائم بذاته لم يعرف إلا في العصر الحديث، فقد مارس الإنسان التخطيط منذ أن عرف معنى الاستقرار ضمن تجمعات بشرية ما لبث يتطور بتطور فنون العمارة و أضحى من احد أهم فروعها، استمر هذا الوضع لقرون طويلة.
- بمجيء الثورة الصناعية انقلبت الأوضاع رأس على عقب، فظهرت المناطق الصناعية في ضواحي المدن متجاوزة أسوار المدينة ما لبثت تستقطب أعدادا متزايدة من الريفيين و القرويين للاستقرار بمحاذاتها فطفت على السطح إشكالات جديدة مستعصية جعلت من الأطر التقليدية التي تعتمد على فن العمارة لا جدوى منها.

من الضروري البحث عن أطر جديدة و قواعد نظرية للإحاطة بهذا الجيل من المدن و إشكالاتها لتقديم الحلول المناسبة

3 اتجاهات التقليدية للتخطيط العمراني:

1.3 الاتجاه التصميمي العمراني في التخطيط *physical design-oriented*

ظل التخطيط العمراني و لمدة طويلة رهينا للعمارة و بذلك لا يمثل سوى شكلا من أشكال التصميم الفيزيقي للأشكال المعمارية على نطاق واسع، على إثر هذا المنظور فالمدينة بناء ضخما تسقط عليه نفس القوانين التصميمية التي تتحكم في المبنى المعماري.

الأوائل القائمين بميدان التخطيط مجرد معماريين اعتقدوا أن تطبيق نفس أدوات التصميم في العمارة كفيل بمعالجة مشاكل المدن وعمرانها، فالتخطيط بمنظورهم يهتم بتنظيم المدينة و صياغة شكلها المستقبلي بصورة جميلة و متناسقة.

2.3 اتجاه الأنساق التحليلية في التخطيط *Systems Analysis-oriented planning*

يعتمد على دراسة العلاقات الوظيفية بين المناطق داخل المدينة نفسها كما بين المدينة وريفها و المدن بعضها ببعض، من هذا المنطلق أصبح الهدف المنشود هو البحث عن فعالية البناء النسقي و متانة العلاقات بين عناصره من خلال تغليب الفعالية في التنظيم و الجودة و الأداء لا أشكال المباني بل طبيعة العلاقات الاجتماعية التي تربط وتجمع مختلف الفئات في المدينة بعضهم ببعض و بأنشطتهم.

وفق المنظور النسقي تغير مفهوم الفراغ من مجرد فراغ ذو أبعاد هندسية فيزيقية حسية إلى مفهوم الفراغ الإنساني ذو أبعاد اجتماعية و اقتصادية و ثقافية رمزية غير مرئية ولا مادية، و بالتالي لم يعد التخطيط مجرد فن صياغة الأشكال و إنما أسلوب اتخاذ القرارات التخطيطية السليمة، إذا أن هذا الاتجاه أفرز تحولا جذريا في جوهره من غاية في حد ذاته إلى وسيلة لتحقيق الغاية.

4 الاتجاهات الجديدة في نظرية التخطيط :

هيمنة الفكر العقلاني على تنظير التخطيط العمراني الذي يجسده التيار الحداثي و التيكنوقراطي جر لإخفاقات و انتكاسات، أبرز أوجهها الحركات الاجتماعية و تطور تنظيمات المجتمع المدني

التي تعمل على التفكير في نهج جديد لممارسة التخطيط يتجلى من خلال الاتصال و التواصل كوسائط تعمل على تحسين فعالية التخطيط – *John Forester 1989* (التواصل *communication* يعتبر أهم عنصر في التخطيط نشاطا و ممارسة)

الوصول إلى اتفاق و بلوغ الإجماع عن طريق التفاعل مع مختلف الأطراف و الفاعلين و تبليغ الأفكار و تشكيل الآراء و صياغة الحجة و مناقشة الاختلافات. حسب *Habermas* (من غير الممكن تدبير شؤون المجتمع العمراني و تفاعله مع المدينة بذات الوسائل البيروقراطية التي يستخدمها التيكنوقراطيين و الخبراء)

خمسة اتجاهات رئيسية بزغت لتعالج القصور المسجل:

- اتجاه تخطيط مدينة الثقافات الإثنية المتعددة *Multi-ethnic or Multi-cultural city planning:*
- *الاتجاه التواصلي التعاضدي Communicative/ Collaborative planning :*
- *اتجاه المدينة العادلة Just city :*
- *الاتجاه التصميم للعمران الجديد New urbanism :*
- *اتجاه الممارسة الحكيمة في التخطيط Phronetic Planning :*

فيما يلي شيء من تفصيل هذه الاتجاهات.

1.4 اتجاه تخطيط مدينة الثقافات الإثنية المتعددة *Multi-ethnic or Multi-cultural city planning.*

تغيرات التركيبة البشرية و الإثنية للمدينة جرت إلى تغيرات في ممارسات التخطيط، فلم تعد المدينة مجرد شكل جامد تحوي استعمالات ثابتة (الإنسان موحد الخصائص و الحاجيات ككتلة

متجانسة ذات مصلحة عامة مشتركة)، على عكس هذا فالسكان جماعات و فرق و عرقيات متعددة لها ثقافات مختلفة و مصالح متباينة في أغلبها متصارعة و متضاربة.

المجتمع المدني المعاصر (متعدد الأطياف و الأعراق و الإثنيات) يميل للمقاومة من أجل تثبيت الهويات و مقاومة الاستيلاب عن طريق الحركات الاجتماعية كوسيلة للتغيير.

البحث عن المدينة العادلة حيث المطالبة بالهوية الثقافية قبل أية مطالب مادية، لبلوغ احترام الخصوصيات الثقافية بعد تحديدها عبر طرق جديدة غير تلك المتعلقة بالمعرفة العلمية التي يمليها الخبراء المخططون. هذه الطرق تستلزم رسم علاقات جديدة ما بين المخطط و الجماعات التي يخطط لها.

الحركات سالفة الذكر ناتجة عن ثلاث قوى اجتماعية و ثقافية، الهجرة بين الدول و ظروف الاستعمار و تنامي حركات المجتمع المدني (إذ تشكل أقليات يتم إهمالها و تناسي قضاياها) التي تعمل على مجابهة مشاكل الأحياء المهمشة.

تخطي النظرة القديمة للفراغ العمراني بكونه مجرد أبعاد فيزيقية هندسية، حيث أضحى ذو أبعاد اجتماعية و اقتصادية محملة برموز و قيم ثقافية و عرقية.

2.4 الاتجاه التواصلي التعاضدي Communicative/ Collaborative planning :

فشل السياسات المتعاقبة – التجديد العمراني – بسبب هيمنة التخطيط الأفقي الذي يسيطر عليه الخبير، عجل بظهور الاتجاه التواصلي في التخطيط الذي يعتمد على المشاركة الشعبية. الفرضية التي يعتمدها هذا الطرح منطلقها أن مجتمع المدينة ذو تركيبة فسيفسائية غير متجانسة تتعايش بصورة متجاذبة و متصارعة لمصالح أفرادها و فئاتها ضمن حدود المدينة لخدمة المصلحة العامة المشتركة.

وجوب العمل التواصلي و الحواري بين مختلف الأطراف ذات المصالح المتباينة في العملية التخطيطية، إذ الحوار و النقاش الكفيلين بجعل جميع الأطراف ذات المصالح المتباينة بالعمل على تحديد الأهداف و الإتفاق على أرضية مشتركة تصبو لصياغتها و بلورتها. من هنا ينحصر دور المخطط في ظل النظرية التواصلية في تسهيل فرص الحوار و التفاوض و لعب دور الوساطة بين جميع الأطراف المتصارعة للبحث عن أرضية تفاهم و اتفاق.

محدودية هذا الاتجاه تكمن في كونه يعتمد على الحي السكني كوحدة أساسية التي من شأنه إهمال أهمية المجتمع الكبير، يضاف إلى ذلك الهدف المراد بلوغه المتمثل في الاتفاق و الإجماع من شأنه دحض الخصوصيات المحلية و نسف الأقليات و بالتالي نحصل على ثقافة الأغلبية أي ثقافة من يملك الغلبة و رأي من يملك السلطة.

نقد الاتجاه التواصلي :

يكمن ضعف هذا الاتجاه في شطره المتعلق بالممارسة، فشتان بين الخطابات الدعائية و الفعل في الميدان، إذ يهيمن الرأي الأقوى أثناء تنفيذ المخططات يضاف إلى ذلك طول المدة الزمنية اللازمة لصياغة المخططات وفق المنظور التواصلي.

أي تواصل أو خطاب بمعزل عن السلطة لا يوصل لشيء بتعبير آخر المثالية في التحادث و الحوار التي يتصورها هذا الاتجاه لا يمكن توفيرها و بالتالي يؤدي لخلل في عملية التواصل ذاتها مما يتح الفرصة لميلاد و تعبئة حركات اجتماعية ليست وليدة تفاوض و لا حوار و لا إجماع بين الأطراف المتباينة و لكن نتيجة شعور بعدم الرضى (عادة ما تكون وليدة تعبئة السلطة و تنظيم موازين القوى).

Bent Flyvbjerg
ديمقراطية الكلام و التفاوض و الحوار المبنية على العقلانية لا تكفي لحل المشاكل

يجب الاعتماد على قوة السلطة
« لا حاجة لقوة الحجة و إقناع الكلمات ما دامت قوة السلطة وحدها كافية و تغني عن الإتفاق و الإقناع »

3.4 اتجاه المدينة العادلة *The just city movement*:

يقر أنصار هذا الاتجاه بأهمية النظرية التواصلية في التخطيط غير أنه تُسجل تباينات في فرض رأي عن أخر، تصرح *Frainstein* بأن " قوة الكلام و التواصل من قوة المتحدث " من هنا كان من اللزوم ضبط عملية إجرائية عادلة تكمن في العمل وفق هدف التخطيط. إذا كانت الإجراءات العادلة فإن نتائج التخطيط و مخرجاته ستكون عادلة أيضا.

لما كانت الأوضاع السائدة في تلك الفترة ترتكز على التنمية العمرانية و تراجع الاهتمام بتحسين أوضاع الفئات محدودة الدخل (المهمشة) طفت على السطح أصوات تنادي بكون العدالة الاجتماعية هي العامل الحاسم في التقييم بدل التنمية بالمفهوم النيوليبيرالي، فالمقياس الأساسي لتقييم المخططات هي تلك المعايير المتعلقة بالتنوع و الديمقراطية و المساواة التي في حالة اعتمادها تعمل على تغيير النتائج التي ينتهي إليها المخططون.

إذا من الواجب ضرورة عكس الأولويات بالاعتماد على مفاهيم العدالة و الديمقراطية و التنوع الإثني في صدارة اهتمامات المخططين على عكس ما هو قائم حيث تهيمن مفاهيم التنمية و الاستثمارات، فباسم التنمية العمرانية يتم إقصاء معظم السكان محدودي الدخل من الاستفادة من الموازنات العامة التي توجه عادة لمصلحة الميسورين و المتنفيذين في المدينة.

4.4 اتجاه العمران الحديث: *the New urbanism*

اتجاه التصميم في التخطيط تبناه المعماريون و الصحفيون، اتجاه إيديولوجي أقرب منه نظري أنصاره متأثرون بالمنظرين الأوائل على غرار Le Corbusier et Ebenezer Howard.
يهدف هذا الاتجاه لتجسيد على أرض الواقع مدينة جميلة وفق تصاميم عمرانية تحتوي:

- أنماط متنوعة من المباني
- تمازج في الاستعمالات
- تداخل مساكن مختلف الشرائح الاجتماعية
- الاهتمام بالفراغ العمراني العام

الحي السكني الوحدة الأساسية للتخطيط يجب أن يعمل على توفير ما يلي:

- حجم محدود
- أبعاد معقولة
- مركز واضح المعالم
- نطاق تغطيته لا يتعدى مسافة خمس دقائق مشيا على الأقدام.

فقد أكد *Kunstler* على أن صياغة ميثاق العمران الجديد *CONGRESS OF NEW URBANISM* تمت على شاكلة ميثاق أثينا *C.I.A.M* يتميز بما يلي:

- يغلب الشكل الفيزيائي في المخططات على أسلوب إجراءات إعدادها
- يعمل على نقد و دحض التمدد العمراني على حساب الضواحي و ما ينجم عنها من إشكالات عمرانية
- جاء كمحصلة لرفض أشكال التطور و التوسع العمراني الحالية

فهذا الاتجاه يعتمد و يرتكز على الأشكال الفراغية أكثر منها أساليب اجتماعية و بالتالي يعود لتكرار نفس أخطاء تيار الحداثة باعتبار التخطيط مجرد تصميم أوعية فراغية عمرانية تضم بشرا متناسيا أنسجة العلاقات الاجتماعية في خضم تجاذب الصراعات السلطوية و المصالح الاقتصادية و الإيديولوجية و البنى الثقافية.

شكل 12: مخطط مدينة سيسايد، فلوريدا المصدر دواني بلاتر زيبارك
Duany Plater-Zyberk

5.4 اتجاه ممارسة التخطيط بحكمة *Phronetic planning*:

بنى أنصار هذا الاتجاه و على رأسهم *Foucault* نظريتهم على أنقاض النظرية التواصلية، فإن كان *Habermas* يقر بأن الإجماع و الاتفاق هدف عملية التواصل و أن استخلاص المعرفة النظرية *épistème* و تعميمها على العمليات التخطيطية هي جوهر نجاح العملية التخطيطية فإن *Foucault* يعتبر النضال و الكفاح أساس الممارسة الحرة و دور الحكمة aphorism هو تقويم العملية التخطيطية لضمان نجاحها.

فالمعيارية عند *Habermas* تشكل مثلا أعلى ينبغي المثابرة و الاجتهاد لبلوغه بالمقابل لا تقدم إستراتيجية واضحة تمكن من تحقيق هذا الهدف، أما *Foucault* فيعتبر أن التحليل يعمل على تقديم نظرية تخطيطية من أجل فهم كيفية عمل و اشتغال التخطيط و ممارسته في الواقع و تساهم في إحداث التغير الاجتماعي من خلاله.

يعتمد أنصار هذا الاتجاه على نظرية أرسطو، إذ يميز بين ثلاثة مستويات من المعرفة، المعرفة العلمية و المعرفة التقنية التي تشمل المهارات التي تصبو للقيام بالفعل و أخيرا المعرفة الحكيمة و نعني بها إدراك ما ينبغي القيام به في ظروف محددة و ضمن شروط معينة.

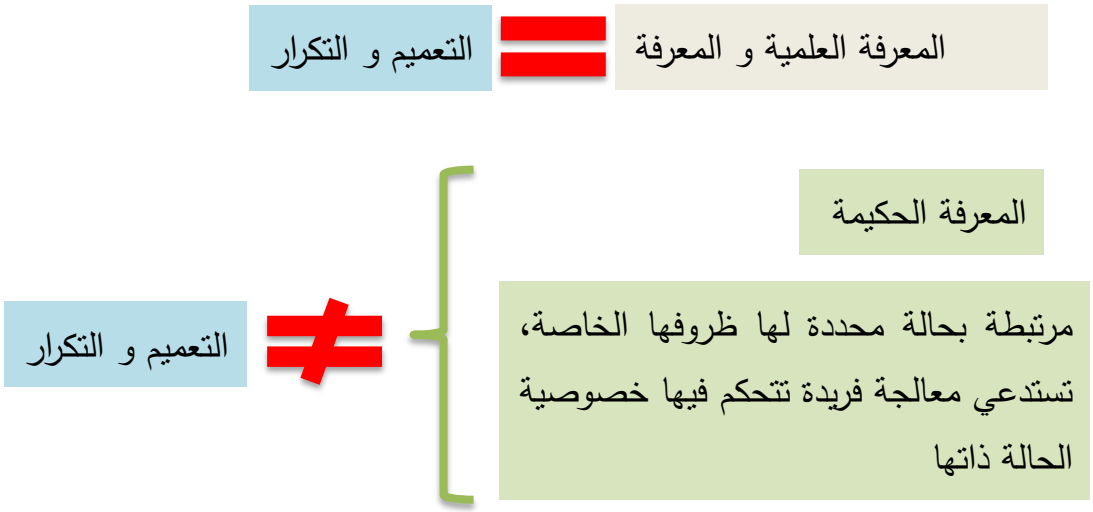

الممارسة الحكيمة نوع من المعرفة التطبيقية التي تمكن من اتخاذ القرارات بحكمة، جد هامة بالنسبة للتخطيط لأنها تضيف بعدا معياريا و أخلاقيا لتطبيق العلوم و التكنولوجيا في التخطيط و ممارسته بحكمة، إذا فهو يخص جانب الممارسة و التطبيق.

من هنا فدور المنظرين ليس صياغة نظرية في ممارسة التخطيط و لكن البحث عن نظرية لكيفية ممارسة التخطيط.

فالمنهج الأول الذي يقود *Habermas* ينطلق في البحث في الممارسة كشيء مجرد و خال من قيم الصراع و التحرر إذ يعتبر على سبيل المثال الأحياء المهمشة نسيج عمراني متهرئ متهالك كالسرطان ينخر النسيج العمراني للمدينة، بينما المنهج الثاني و الذي يمثله *Foucault* يضفي على الممارسة شيئا من الحكمة و يجعل منها أداة للصراع التحرري و على عكس المنهج الأول فهو يعتبر الأحياء المهمشة موطنا لمجتمعات بشرية ناشئة تصارع من أجل تحسين أوضاعها و تكافح من أجل اندماجه في نسيج المدينة لتنتزع الاعتراف بها كإحدى مكوناتها في ظل الصراعات القائمة.

في الأخير يقر *Flyvbjerg* 1998 يجب التعامل مع التخطيط كظاهرة يمكن ملاحظتها و تشريحها و نقدها يمكن لها أن تكون جيدة أو العكس و لكن من دون إصدار أحكام أو فرضيات مسبقة، بل أن جوهر العملية التخطيطية لا ينحصر في وضع مخططات و تنفيذها بإشراك المعنيين بهذه الأخيرة بل يتعداه لتفعيل مشاركة حقيقية مع تمكين الأطراف المستضعفة للقيام بدوها لتنتزع مصالحها من دون منة من أحد.